يشكو ما به اليه . قيل لبعضهم : كيف تشتكى الى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؟ فقال :

قالوا أتشكو اليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربى يرضى ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن الحسن . قال : قال رجل : لأمتحنن أهل البلاء . قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع ، وان ذلك لبعين الله ، أحبه الى أحبه الى الله عز وجل ، وددت ان ربى قطع منى الأعضاء التى اكتسبت بها الاثم وانه لم يبق منى الا لسانى يكون له ذاكراً . قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفاك الخلق كلهم عبيد الله وعياله فاذا نزلت بالعباد علة فالشكوى الى الله ليس يشكى الله الى العباد *

﴿ الباب الثانى والعشرون ﴾

(هل المصائب مكفرات أو مثيبات)

وقد اختلف العلماء فى هذا الباب اختلافا كثيراً ، وتباينوا فيه تباينا شديداً فذهب بعض العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة ، وذهب طائفة أخرى من العلماء الى أنه لايثاب على المصائب مطلقاً ، وانما يثاب على الصبر عليها ، حتى قطع به ابن عبدالسلام فى قواعده ، وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء الى أن اطلاق القول بالثواب ، واطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه مايدفعه ، وان ثم فرق مؤثراً نذكره فيما بعد ان شاء الله * وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت اليه كما سنذكره بعد * احتجت طائفة من العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى :(ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون

موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) الآية وفى الصحيحين عن النبى ﷺ . قال : « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولاحزن ولاغم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » ـ الوصب الوجع اللازم ـ ومنه قوله تعالى : (ولهم عذاب واصب) أى لازم ثابت ، والنصب التعب * وروى الحاكم فى المستدرك أن النبى ﷺ . قال : « المصاب من حرم الثواب » * وروى ابن ماجه من حديث أبى ذر رضى الله . قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعته ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » ورواه الامام أحمد موقوفاً على أبى مسلم الخولانى . وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ . قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث[1] الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ورواه أحمد والنسائى « ما مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث الاغفر لهما » وغير ذلك من الأحاديث مما اختصرته . قال النواوى رحمه الله : فى شرح مسلم عند قوله ﷺ : « ما مسلم يشاك بشوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » وفى رواية « الا رفعه الله بهادرجة أو حط عنه بهاخطيئة » وفى بعض النسخ « وحط عنه بها خطيئة » بغير ألف ، وفى رواية « الا كتب له بها حسنه أو حطت عنه بها خطيئة » قال : وفى هذه الاحاديث بشارة عظيمة

---

(١) قال الجراعى : فى حاشية الفروع ، وقوله لم يبلغوا الحنث أى لم يبلغوا مبالغ الرجال ، ويجرى عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ـ وهو الأثم ـ قال القاضى : لا فرق بين الولد الصغير والكبير ، والحكمة فى تنصيصه صلى الله عليه وسلم على الصغير هو حصول المشقة بموته لكثرة الحنو عليه ، وهذا التنصيص خرج مخرج الغالب فنعزيه الى كل مولود وجد فيه ذلك . اهـ

المسلمين ، فانه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شئ من هذه الامور وفيه تكفير الخطايا بالامراض والاسقام ومصائب الدنيا وهمومها وان قلت مشقتها ، وفيه رفع الدرجات بهذه الامور وزيادة الحسنات ، وهذا هو الصحيح الذى عليه جماهير العلماء . وحكى القاضى عياض عن بعض العلماء : أنها تكفر الخطايا فقط . ولم يبلغهم هذه الاحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات ، وكتب الحسنات انتهى كلامه . ويؤيد ذلك قول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا اشتد عليه الوجع من رسول الله ﷺ . وقوله ﷺ : « إنى لاوعك مثل رجلين منكم » وإنك توعك وعكا شديداً وقوله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل » . قال جماعة من العلماء : والحكمة فى كون الأنبياء أشد بلاء ثم الامثل فالامثل ، أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحه الاحتساب ، والأنبياء معصومون من الخطايا ، فتعين الثواب والله أعلم * وفى حديث المرأة التى كانت تصرع دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب . وفى مسلم ، قالت امرأة : يارسول الله دفنت ثلاثة من الولد . قال : « احتظرت بحظار من النار » قال بعض السلف : فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة فانه قد ثبت أن النبى ﷺ قال : « المصاب من حرم الثواب » * وقد تقدم . وتقدم فى أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول والله أعلم * احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بان المصائب لا يثاب عليها ، وانما يثاب على الصبر عليها . بقوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). قال ابن عبد السلام فى قواعده : الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه . قال تعالى : (والذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم : (إنا لله وإنا اليه راجعون) فالاسترجاع هو سبب فى حصول ما ذكر ، وكذلك

حـديث أبي موسى الأشعرى رضى الله عنـه . انه قال : قال رسول الله ﷺ :« يقول الله عز وجل لملك الموت : ياملك الموت قبضت ولد عبدى ، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ، قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع ، قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمـد » فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له فى الجنة ، وتسمية البيت كافية . قال القاضى عياض : وقد روى عن عبد الله بن مسعود انه قال : الوجع لا يكتب به أجر إنما يكفر الخطايا فقط *

﴿ فصل ﴾

(فى سياق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله)

أما ما يحدثه الله من المصائب ، فتارة بغـير فعل المخلائق كالامراض ونحوها وتارة بفعلهم ، وفصل الخطاب أن المصائب تولدت عن عمل صالح كما تتولد عن الجهاد والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ونحوه ، فهذا يثاب عليه ، فان الانسان يثيبه الله على عمله وعلى ما يتولد عن عمله اذا أقدم على احتماله ، فان المجاهد قد أقدم على الجهاد وهو يعلم انه يؤذى فى الله عز وجل ، وقد يناله ضرر فى جهاده ، فتموت فرسه ، أو يؤخذ ماله ، أو يضرب أو يشتم ونحو ذلك . كما قال تعالى :(ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الـكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) فاخبر تعالى انه يكتب لهم عمل صالح بما يصيبهم من التعب والجوع والعطش ، ونحو ذلك الذى حصل لهم بسبب الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، فهذه الأمور يغفر الله بها خطاياه ، و يؤجر على هذه المصائب لانها حصلت بسبب جهاده ، فهى مما تولد عن عمله ، وما تولد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها * وأما الجوع والعطش والتعب الذى يحصل بدون ذلك فلا يثاب إلا على الصبر عليه ، فانه ليس من عمله ولا متولداً عن عمل صالح ، لـكن هو من المصائب التى يكفر الله بها خطاياه * وأما المصيبة بالولد ، فالولد تولد عن جماعه

الذى صان نفسه به عن الزنا وقصد به النسل وتكثير الأمة وغض البصر عن المحارم ، فاذا حصل له ذلك ثم مات الولد فقد أثيب عليه من جهة ، وكفر الله به خطاياه من جهة ، لانه تولد عن عمله * وأما الامراض والاسقام فهى تكفر الخطايا * وقد روى أن أبا عبيدة بن الجراح لما عادوه . وقالوا له : أجر . فقال : ليس لى من الأجر مثل هذه ، ولكن المرض حطة يحط الله به الخطايا . فهذا الذى ذكرته هو الفرق بين المصائب التى يثاب عليها ، والمصائب التى لا يثاب عليها ، فان بعض الناس يظن إنه يثاب على كل مصيبة ، ومن العلماء من يطلق القول بان المصائب يثاب عليها ، وانما يثاب على الصبر عليها . ثم قال بعد ذلك بكلام كثير : فمن فعل فعلا صالحا باختياره فأوذى واحتسب ذلك الأذى ، كان ذلك الأذى من عمله الصالح الذى يثاب عليه ، كالصائم اذا احتسب جوعه وعطشه . وقد قال ﷺ : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » والخلوف تولد عن صومه بغير اختياره ، لكن تولد عن عمل صالح وكذلك القائم بالليل اذا احتسب تعبه وسهره ، فان الأذى الذى يحصل باختيارك فى طاعة الله أنت جلبته على نفسك باختيارك طاعة الله ، فليس هو كمن أوذى بغير اختياره ، فان ذلك أذاه مصيبة محضة ، لكن هى حق له على الظالم . وقال الشيخ رحمه الله فى قول النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له وليس ذلك لاحد الا للمؤمن إن أصابته سراء شكر كان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » وهى نفسها تكفر خطاياه ويؤجر على الصبر عليها ، ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا ، وله فيها رحمة من جهة ما يؤجر على الصبر عليها ، لا سيما اذا اقترن بها توبة وأنابة الى الله ، وتوكل عليه وتوحيد له ، واخلاص الدين له ، فانها تكون من أعظم النعم ، ومصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله . قال بعض السلف : يا ابن آدم لقد بورك لك فى حاجة أكثرت فيها قرع باب سيدك ، وفى الحديث .

اذا قالوا للمريض : اللهم ارحمه . يقول الله عز وجل : كيف أرحمه من شئ به أرحمه ؟ وفى الأثر : يا ابن آدم البلاء يجمع بينى و بينك ، والعافية تجمع بينك و بين نفسك . انتهى * والمقصود من كلام الشيخ رحمه الله ان كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائب أثيب عليه بخلاف المصائب التى لم تتولد عن عمله فانها مكفرات لامثيبات *

﴿ فصل ﴾

قال الشيخ رحمه الله : وكثير من الناس لا يعرف النعمة الا ما يلتذ به فى دنياه، كما قال بعض السلف : من لم يعرف نعمة الله الا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه : وحضر عذابه . فمن الناس من يرى النعمة فى بدنه فقط بالأكل والشرب والنكاح ، ومنهم من يرى النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الامر والنهى وقهر الاعداء ، ومنهم من يرى النعمة فى جمع الاموال والقناطير المقنطرة ، وهؤلاء من جنس الكفار ، يرون هذه نعما ، وأعلى من هؤلاء من يرى النعمة فى الايمان والعمل الصالح ، لكن لا يرى الأمر بذلك والجهاد عليه نعمة ، بل يرى فيه من المضار ما يوجب تركه ، والذين يرون هذه النعمة منهم من لا يراه نعمة الا مع السلامة والغنيمة ، فان جرح أو قتل بعض أولاده ، أو أخذ ماله ، عد ذلك مصيبة لا نعمة * وحجة هؤلاء كلهم ان النعمة ما يتنعم به العبد وهذه الامور تؤلم النفس فلا تكون من النعم بل من المصائب ، ولا ريب أنها من المصائب باعتبار ما يحصل فيها من الألم ، ولهذا أمر بالصبر عليها ، لكن لا منافاة بين كون الشئ مصيبة باعتبار ، ونعمة باعتبار ، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة ، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة وهذا لانه اذا قيل هذا يكفر به الخطايا ويؤجر عليها ويؤجر على الصبر عليها كانت نعمة ، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه ، هو مصيبة باعتبار مرارته ، وهو نعمة باعتبار ازالته للمرض الذى هو أشد ضرراً فيه ، وأدنى الشرين

اذا زال أعظمهما كان نعمة ، ومن استعمل نعمة الله فى المعاصى كانت شراً فى حقه ، لانها جرته الى العذاب الذى هو أعظم من تلك اللذة ، كمن أكل عسلا فيه سم ، فان ضرر السم أعظم من حلاوة العسل . والله أعلم انتهى كلامه *

﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾

(فى الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه)

وهذا الباب مما يطيب قلوب أهل المصائب على مصابهم ، فانهم اذا بدلوا بدل الحزن والبكاء ولطم الخدود وشق الثياب والنياحة ، الصدقة والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والصلاة والصيام ، ونحو ذلك من أفعال القرب ، وعلموا وصولها الى موتاهم ، وانه يحصل لهم بذلك — : إما تكفير سيئات ، أو رفع درجات ، أو كلاهما حصل لهم السرور بذلك والفرح الزائد ، وهذا الباب منعقد على اهداء القرب الى الموتى والاحياء فنذكر اختلاف العلماء فى وصول ثواب ذلك اليهم ، فمن أنواع القرب قرب لم يختلف العلماء فى وصول ثوابها الى الموتى ؛ ومنها قرب اختلف العلماء فى وصول ثوابها اختلافا كثيراً ، فنذكر ما يسره الله تعالى فى ذلك ، فان ذكر الاختلاف والبسط سبيل ذلك الكتب المطولة *

﴿ فصل ﴾

(فى ذكر اختلاف الناس فى وصول ثواب اهداء القرب الى الموتى)

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وقضاء الدين وأداء الواجبات ، فلا أعلم خلافا فى وصولها ، حكاها غير واحد من العلماء ، ومن العلماء من يشرط فى الوصول اذا كانت الواجبات مما يدخله النيابة . قال الله تعالى : (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) الآية . وقال تعالى : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ودعا النبى